

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الْمُصَبَّحُ الْمُنِيرُ فِي تَهْذِيبِ تَفْسِيرِ ابْنِ كَثِيرٍ
سُورَةُ الرَّحْمَنِ مِنَ الْآيَةِ ٥٦ إِلَى الْآيَةِ ٦٨
الشِّيخُ / خَالِدُ بْنُ عُثْمَانَ السَّبْت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، قال المفسر رحمة الله تعالى:- ولما ذكر الفرش وعظمتها قال بعد ذلك: **{فيهن}** أي: في الفرش **{قَاصِرَاتُ الْطَّرْفِ}** [سورة الرحمن: ٥٦] أي غضيضات عن غير أزواجهن، فلا يرین شيئاً أحسن في الجنة من أزواجهن، قاله ابن عباس، وقتادة، وعطاء الخرساني، وابن زيد.

وقد ورد أن الواحدة منهن تقول لبعها: والله ما أرى في الجنة شيئاً أحسن منك، ولا في الجنة شيئاً أحب إليّ منك، فالحمد لله الذي جعلك لي وجعلني لك.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله، والصلوة والسلام على رسول الله، أما بعد:
فقوله -تبارك وتعالى:-: **{فيهن قَاصِرَاتُ الْطَّرْفِ}** كما قال الله -تبارك وتعالى- في الموضع الآخر: **{وَعِنْدُهُمْ قَاصِرَاتُ الْطَّرْفِ عَيْنٌ}** [سورة الصافات: ٤٨] جمع عيناء، وهي واسعة العين، أي جميلات العيون، **{وَعِنْدُهُمْ قَاصِرَاتُ الْطَّرْفِ أَتْرَابٌ}** [سورة ص: ٥٢]، يعني في سن متقاربة، أو في سن متعددة، فهذه كلها من أوصاف هؤلاء النساء في الجنة، فهن في غاية الجمال في بياض مشوب بحمرة، في غاية الصفاء مع سعة العيون وتقارب في السن، والإنسان إذا كان له نساء في الدنيا بهذه عمرها ستون سنة، وهذه عمرها أربعون، وهذه عمرها ثلاثون، وأما في الجنة ففي سن الشباب في سن واحد، لا يهرمن، ولا يذهب حسنها وجمالها، وقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا: **{قَاصِرَاتُ الْطَّرْفِ}** قال: أي غضيضات عن غير أزواجهن فلا يرین شيئاً في الجنة أحسن من أزواجهن، **{قَاصِرَاتُ الْطَّرْفِ}** باعتبار أن الطرف هنا يراد به طرفهن يعني النظر، وتحتمل الآية معنى آخر قال به بعض السلف: أي قاصرات طرف أزواجهن عليهن لشدة جمالها فهي في غاية الجمال لا ينظر زوجها إلى أحد سواها، ولا يتطلع إلى نساء آخريات؛ لأن عنده غاية الجمال والحسن فهي تقصر طرف زوجها **{قَاصِرَاتُ الْطَّرْفِ}**، ولا شك أن المعنى الأول هو المتبادر، وهو الذي تمدح به المرأة عادة يقال: فلانة قاصرة للطرف، فهي عفيفة بغاية العفة لا تنظر إلى الرجال، ولا تتطلع إليهم بخلافها كثير من نساء الدنيا، فإنها يعجبها هيئة هذا وصورته، ويعجبها منطق هذا ويعجبها شجاعة هذا، ويعجبها أمور كثيرة مما قد تستهويها، وإذا كانت في غاية الجمال فإن هذا قد يفهم منه أنه لا ينظر إلى غيرها، تقصر طرف زوجها؛ ولهذا من أهل العلم من حمله على المعنيين، **{قَاصِرَاتُ الْطَّرْفِ}** لا تنظر إلى أحد لا تتطلع إلى أحد، وزوجها لا ينظر إلى غيرها لشدة حسنها وجمالها، أي ولشدة الحسن والجمال فهن **{قَاصِرَاتُ الْطَّرْفِ}**، ذكر الفرش فقال: **{مُنْكَنِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَانُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَّى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ}** [سورة الرحمن: ٥٤]، ثم قال بعده: **{فَبِأَيِّ آنَاءِ رَبِّكُمَا تَكَذِّبَانِ}**، ثم قال: **{فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الْطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْنَ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ}**،

والمراد بقاصرات الطرف هنا يحتمل أن يكون المراد به الحور العين وليس نساء الدنيا الالتي في الجنة، والقرينة الدالة على هذا هي أنه قال: **{لَمْ يَطْمِثُنَ إِنْسَ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ}** وهذا يستغرق جميع الأزمنة، ما سبق أن طمثت، وهذا وصف الحور العين، أما نساء الدنيا فخلاف ذلك فهي في الأصل زوجته في الدنيا التي قد طمثها، وهذه **{لَمْ يَطْمِثُنَ إِنْسَ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ}**، ومن أهل العلم من قال المراد به: نساء الدنيا ينشئهن الله نشأة أخرى والله يقول: **{إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَ إِنشَاءَ فَجَعَلْنَاهُنَ أَبْكَارًا * عَرْبًا أَتْرَابًا}** [سورة الواقعة: ٣٥-٣٧] عرباً متحببات، يعني متحببة إلى زوجها، فالتي عندها حسن التبعل إذا تكلمت معه أو دعاها أجابته وتكلمت معه بأذب عباره، وألطافها وأحسنها، **{أَتْرَابًا}** يعني في سن مقاربة في غاية الشباب، فهذا يحتمل، ومن أهل العلم من يقول: هؤلاء من نساء الدنيا ما مسنهن أحد قبل ذلك، ليست زوجته، وإنما آخريات أيضا يتزوج بهن، لم يمسهن أحد قبل ذلك، وهذا القول يعني أنهن متن أبكاراً، وهذا يمكن أن يجاب به على السؤال الذي يسأل عنه كثير من النساء، فالنساء دائماً إذا سمعن عن الحور العين غرن منها، ويقولن: أنت لكم الحور العين ونحن ما لنا؟ نقول: أما المتزوجة فإنها لا ترى شيئاً أحسن من زوجها **{قَاصِرَاتُ الْطَّرْفِ}**، ترى أنه في غاية الحسن والجمال، ولا تطلب غيره، وعلى هذا القول يكون المراد النساء الالتي لم يتزوجن في الدنيا، وهذا يسأل عنه كثيراً يقال: التي ماتت ولم تتزوج؟ الرجال يتزوجون بالحور العين، والتي ماتت ولم تتزوج؟ من أهل العلم من يقول: الالتي متن وما تزوجن هن الالتي على هذه الفرش؛ لأنه قال: **{لَمْ يَطْمِثُنَ إِنْسَ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ}** ماتت وهي بكر، -والله تعالى أعلم-، لكن الآية تحتمل هذه المعاني **{فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الْطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثُنَ إِنْسَ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ}** ولعل أبعد هذه المعاني أو أضعفها هو المعنى الأخير مع أن الآية تحتمله، والله -عز وجل- أخبر أن الجنة فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، فيها كل ما يتلذذ به الإنسان وهذا عام، ولذلك يقال للنساء الالتي لم يتزوجن: لن ينقص من نعيمهن شيء إطلاقاً، لكن الله -عز وجل- لم يذكر لنا تفصيلاً في هذا، والسبب في ذلك -والله تعالى أعلم- أن العادة جرت بذكر النساء من جملة النعيم وهو من الأشياء المحببة للنفوس، فالله -بارك وتعالى- مثلاً يقول: **{زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُ الشَّهْوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ}** [سورة آل عمران: ١٤]، أول ما بدأ النساء، ولهذا فإن العرب يقولون: إن الأطيبيين هما النكاح والأكل **{زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُ الشَّهْوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ}** ثم ذكر البنين والقناطير إلى آخره، لما تقرأ النساء هذه الآية **{زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُ الشَّهْوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ}**، يقلن: ونحن زين لنا حب الشهوات من الرجال؟! فيقال: ما جرت العادة بهذا فالمرأة هي محل متنة الرجل؛ فلذلك إذا ذكر النعيم ذكر النساء وهذا تجده في القرآن في مواضع، فالقرآن جرى على هذه الطريقة المعهودة فيما يتعارفه الناس ويتحدثون به فيما بينهم، وتحذب إليه أنفسهم وليس معنى ذلك أن المرأة لا يكون لها مثل هذا النعيم، والله تعالى أعلم.

{لَمْ يَطْمِثُنَ إِنْسَ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ} أي: بل هن أبكار عرب أتراب، لم يطأهن أحد قبل أزواجهن من الإنس والجن، وهذه أيضاً من الأدلة على دخول مؤمني الجن الجنة.

{لَمْ يَطْمِثُنَ} قال: بل هن أبكار عرب أتراب لم يطأهن أحد قبل أزواجهن من الإنس والجن **{لَمْ يَطْمِثُنَ}**، يعني لم يطأهن، وتفسير من فسره بأنه لم يذللهم لا يخرج عن هذا؛ لأن الموطدة التي وطئت قد ذلت بالوطء بخلاف من لم توطأ، البكر، ومن أهل العلم من فسره بما هو أخص من الوطء، وطء مع تدمية **{لَمْ**

يَطْمَثُهُنَّ أي وطء مع تدمية، يعني افتراض الأبكار، وهو المعنى الذي فسر به قوله -تبارك وتعالى-: **{فِي شُغْلٍ فَاكِهُونَ * هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَاكِ مُتَكَبُونَ}** [سورة يس: ٥٥-٥٦]، قالوا: **{فِي شُغْلٍ}** يعني افتراض الأبكار؛ لأنه ذكر الأراك بعده، فمنهم من فسره بهذا المعنى الخاص أنه ليس مجرد الوطء هو الطمث وإنما وطء مع تدمية، وهو الذي قال به كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله-، وجمع من أهل اللغة. قال أرطاة بن المنذر: سئل ضمرة بن حبيب: هل يدخل الجن الجنة؟ قال: نعم، وينکحون، للجن جنات، وللإنس إنسيات، وذلك قوله: **{لَمْ يَطْمَثُهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ}**. ثم قال ينعتهن للخطاب: **{كَانَهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ}**، قال مجاهد، والحسن، والسدي، وابن زيد، وغيرهم: في صفاء الياقوت وبياض المرجان، فجعلوا المرجان هاهنا اللؤلؤ.

إذا قيل بأن اللؤلؤ هو الدر الكبير، والمرجان هو الصغير، فيكون شبههن من جهة البياض بـ "اللؤلؤ"، ومن جهة صفاء اللون بـ "المرجان"، اللؤلؤ الصغير؛ لأن اللؤلؤ الكبير يكون كثيفاً فلو أنه وضع فيه السلك قد لا يظهر السلك، وأما المرجان فهو اللؤلؤ الصغير فهو في غاية الصفاء شفاف فلو وضع فيه السلك ظهر، فشبههن في البياض بـ "اللؤلؤ" وفي صفاء اللون بـ "المرجان" وقد جاء في الحديث أنه يرى مخ ساقها من وراء الجلد أو الثياب، لشدة الصفاء يرى مخ الساق، ومن فسر المرجان بالأحمر قال: **{كَانَهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ}** اللؤلؤ يدل على الصفاء والبياض، والمرجان يدل على الحمرة، بياض مع صفاء مشوب بحمرة، وهذا أجمل ما يكون في ألوان النساء.

وقد رواه مسلم عن محمد بن سيرين قال: إما تفاخروا وإما تذكروا، الرجال أكثر في الجنة أم النساء؟ يعني يقول ابن سيرين: إن أهل المجلس يعني أبا هريرة -رضي الله عنه-، ومن معه إما أنهم قالوا ذلك على سبيل البحث والمذاكرة، أو قالوه على سبيل المفاخرة: من الأكثر الرجال أو النساء في الجنة؟ فقال أبو هريرة -رضي الله عنه-: أولم يقل أبو القاسم -صلى الله عليه وسلم-: ((إن أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر، والتي تليها على أضناها كوكب ذري في السماء، لكل امرئ منهم زوجتان اثنان، يرى مخ سوقهما من وراء اللحم، وما في الجنة أعزب))^(١)، وهذا الحديث مخرج في الصحيحين.

قوله: **((وَمَا فِي الْجَنَّةِ أَعْزَبٌ))** بمعنى أنه على هذا الاعتبار: النساء يكن على الضعف من الرجال، لكن هذا لا يعني أن هؤلاء النساء -لكل رجل من النساء اثنان- من نساء الدنيا، فقد يكون المقصود من الحور العين، أو على قول من قال بغير هذا، فعلى كل حال هذا يحتمل، والآلية لا يقطع بتفسيرها بأحد هذين المعنين، يمكن أن يكون المقصود من الحور العين، ويمكن أن يكون من نساء الدنيا، والنبي -صلى الله عليه وسلم-

١ - رواه مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيها وأهلها، باب أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر وصفاتها وأزواجهم، برقم (٢٨٣٤)، والبخاري، بدون "وما في الجنة أعزب"، كتاب بدءخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، برقم (٣٠٨١).

قال: ((يا عشر النساء تصدقن فإني رأيتكن أكثر أهل النار!))^(٢)، ثم في مجري العادات أن النساء يوازنن الرجال يعني في العدد، وفي آخر الزمان النساء أكثر من الرجال، وأخبر النبي -صلى الله عليه وسلم- بقوله: ((وما في الجنة أعزب)) بمعنى أن هذا ليس فقط لبعضهم، بل لكل واحد زوجتان، ويمكن أن يؤخذ من الجملة ((وما في الجنة أعزب)) يمكن أن يفهم منها: ولا في النساء، فالكل متزوج، والنساء اللاتي لم يتزوجن، يمكن أن يُجَبَّنَ بهذا الحديث: ((وما في الجنة أعزب)), أقول هذا؛ لأن السائلات عنه كثير، حتى إن بعض النساء تدعوه لزوجها تقول: الله يدخلك الجنة لكن بدون حور!! إلى هذا الحد، هذا موجود، لا يكفي الغيرة من نساء الدنيا بل حتى من نساء الجنة!!.

روى الإمام أحمد عن أنس -رضي الله عنه-، أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((الغدوة في سبيل الله أو روحه خير من الدنيا وما فيها، ولقب قوس أحدكم أو موضع قيده يعني: سوطه- من الجنة خير من الدنيا وما فيها، ولو اطاعت امرأة من نساء أهل الجنة إلى الأرض لملاط ما بينهما ريشا، ولطاب ما بينهما، ولتصيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها))^(٣)، ورواه البخاري بنحوه.

وقوله: {هَلْ جَرَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا إِلْحَسَانُ} أي: ما لمن أحسن في الدنيا العمل إلا الإحسان إليه في الدار الآخرة. كما قال تعالى: {الِّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَرَيَادَةً} [سورة يونس: ٢٦].

ولما كان في الذي ذُكرَ نعم عظيمة لا يقاومها عمل، بل مجرد تفضل وامتنان، قال بعد ذلك كله: {فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ}.

قوله هنا: {هَلْ جَرَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا إِلْحَسَانُ} الله لا يضيع أجر من أحسن عملا، فالذين أحسنوا جازهم الله عز وجل- بالحسنى، وقد ذكر بعضهم أن هذه الآية مع آيتين آخرتين -مجموع ثلاث آيات- {وَإِنْ عَدْتُمْ عَدْنَ} [سورة الإسراء: ٨]، {هَلْ جَرَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا إِلْحَسَانُ}، {فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ} [سورة البقرة: ١٥٢] يقول: فيها نحو مائة قول، في كل واحدة مائة قول، والحمد لله الآية واضحة {هَلْ جَرَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا إِلْحَسَانُ}.

{وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّاتٌ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُدْهَامَاتٍ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرَمَانٌ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخَيَامِ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * لَمْ يَطْمِثُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُنْكَئِينَ عَلَى رَفَرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْرَقِيٍّ حِسَانٌ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ} [سورة الرحمن: ٦٢-٧٨].

هاتان الجناتان دون اللتين قبلهما في المرتبة والفضيلة والمنزلة بنص القرآن، قال الله تعالى: {وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّاتٌ}.

٢ - رواه البخاري، كتاب الحيط، باب ترك الحائض الصوم، برق (٢٩٨)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان نقصان الإيمان بنقص الطاعات، برق (٧٩).

٣ - رواه الإمام أحمد في المسند، برق (١٢٤٣٦)، وقال محققته: حديث صحيح، وهذا إسناد حسن، والبخاري، كتاب الجهاد والسير، باب الحور العين، وصفتهن يحار فيها الطرف، شديدة سواد العين شديدة بياض العين، برق (٢٦٤٣)، واللفظ لأحمد.

قال: **{وَمِنْ دُونِهِمَا}** لفظة دون تشعر بأن هاتين الجنتين أقل في المرتبة من اللتين قبلهما، **{وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّاتٍ}** كما في الحديث الذي ذكره: ((جَنَّاتٌ مِنْ ذَهَبٍ آتَيْتَهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّاتٌ مِنْ فَضْلٍ))^(٤)، والفضة دون الذهب، فعلى هذا تكون المراتب أن الجنتين الأوليين للسابقين، وهاتين الجنتين لمن دونهم، ومعلوم أن أهل الجنة كما قال الله -عز وجل-: **{ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ}** [سورة فاطر: ٣٢]، فهم على المراتب الثالث، قيل: بدأ بالظلم؛ لأن أكثر أهل الجنة من الظالمين لأنفسهم أصحاب الذنوب، وقيل: بدأ به؛ لئلا يقطر، وهذا الذي يظهر -والله تعالى أعلم- أن قوله: **{وَمِنْ دُونِهِمَا}** يعني في المرتبة بمعنى أنها أقل، ومن أهل العلم من فهم عكس هذا، قال: **{وَمِنْ دُونِهِمَا}** أي في القرب إلى العرش؛ ولهذا قال بعض السلف: إن الجنتين الأوليين جنة عدن وجنة النعيم، وأما الآخريين التي قال فيها هنا: **{وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّاتٍ}** فهما الفردوس والمأوى هناك عند سدرة المنتهى قال: **{عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى}** [سورة النجم: ٥] فعلى كل حال هذا بناء على ماذا من قال: إن هذا المقصود به الفردوس؟ بناء على أن **{وَمِنْ دُونِهِمَا}** يعني في القرب من العرش أقرب إلى العرش، لكن المعنى الأول هو المبادر -والله تعالى أعلم-، والآن هي أربع جنات: جناتان **{وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ}** [سورة الرحمن: ٤٦] كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((جَنَّاتٌ مِنْ ذَهَبٍ)), **{وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّاتٍ}** أيضاً، ويبقى النظر هل المقصود بذلك أن الجنان أربع يشتركان فيها الناس ويدخلونها؟ كل له قصوره، وله ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، يعني هل المقصود بيان الجنان التي يدخلها أهل الإيمان في الآخرة أنها أربع جنات؟ جناتان من ذهب وجناتان من فضة؟ أو أن المقصود أن أهل الجنة بحسب مرتبتهم يكون لكل واحد جناتان، بستانان، الجنة تطلق على البستان فقد يراد بها جنس الجنة، يقال: الجنة هي مأوى المتقيين أو المقصود لكل واحد، يعطى كما ذكرنا قول من قال مثلاً بأن واحدة هي مقعده الذي أعد له، والأخرى ما ورثه من محل الكافر، فله بستانان أو أن إدحاماً بعمله الطاعات، والأخرى بتركه للمعاصي مثلاً كما يقول بعض السلف، -والله تعالى أعلم- لكن الآية تحتمل هذا، وقد يفهم من ظاهرها أو قد يشعر أن لكل واحد جنتين، **{وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ}**، فالكلام على الخائف يكون له جناتان، وهذا الذي ذهب إليه الحافظ ابن القيم -رحمه الله-، والآية تحتمل، فالله أعلم.

وقد تقدم في الحديث: ((جَنَّاتٌ مِنْ ذَهَبٍ آتَيْتَهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّاتٌ مِنْ فَضْلٍ آتَيْتَهُمَا وَمَا فِيهِمَا، فَالْأُولَى لِمَنْ قَرُبَ إِلَيْهَا، وَالْآخِرَى لِمَنْ قَرُبَ إِلَيْهَا)).

وقال أبو موسى: جناتان من ذهب للمقربين، وجناتان من فضة لأصحاب اليمين. والدليل على شرف الأوليين على الآخريين وجوه: أحدها: أنه نعم الأوليين قبل هاتين، والتقديم يدل على الاعتناء ثم قال: **{وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّاتٍ}**.

هنا ذكر الحافظ ابن كثير -رحمه الله- عدة أوجه لتفضيل الجنتين الأوليين على الجنتين الآخريين، وحديث أبي موسى هذا واضح في هذا المعنى، وفي لفظ في الصحيحين: ((جَنَّاتٌ فِي الْفَرْدَوْسِ أَرْبَعُ جَنَّاتٍ جَنَّاتٍ مِنْ ذَهَبٍ وَجَنَّاتٍ مِنْ فَضْلٍ))

^٤ - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة الرحمن، برقم (٤٥٩٧)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم -سبحانه وتعالى-، برقم (١٨٠).

ذهب.....)) إلى آخر ما ذكر، هذا في جنات الفردوس، ابن كثير -رحمه الله- في هذا الكلام الآن يذكر وجوه ترجيح الجنتين الأوليين على الجنتين الآخريين، وابن القيم -رحمه الله- ذكر عشرة وجوه استتباطها من المقارنة بين هذه الأوصاف، وكثير مما ذكره ابن القيم -رحمه الله- مشابه لكلام ابن كثير، يعني وجوه الترجيح عند ابن كثير -رحمه الله-: الوجه الأول أنه قدم **{ولَمْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ}** والتقديم يدل على الاعتناء ثم قال: **{وَمَنْ دُونَهُمَا جَنَّاتٌ}**.

وهذا ظاهر في شرف التقدم وعلوته على الثاني.

هذه وجوه المقارنة قال: أحدها أنه نعمت، والثاني **{ذَوَاتًا أَفْنَانٍ}**، وهكذا الثالث والرابع والخامس والسادس لم يعددوا بهذه الطريقة، ذكر الأول فقط، وسيذكر الآن وجوه المقارنة وقال هناك: **{ذَوَاتًا أَفْنَانٍ}**: وهي الأخCHAN أو الفنون في الملاذ، وقال هاهنا: **{مُذْهَامَتَانِ}** أي سوداوان من شدة الري.

قال ابن عباس في قوله: **{مُذْهَامَتَانِ}** قد اسودتا من الخضراء، من شدة الري من الماء.

وقال محمد بن كعب: **{مُذْهَامَتَانِ}**: ممتلئتان من الخضراء، وقال قتادة: خضراوان من الري ناعمتان. ولا شك في نضارة الأغصان على الأشجار المشبكة بعضها في بعض.

يعني يقول من الناحية الجمالية: إن الشجر الذي تظهر أغصانه يكون أجمل وأبهى خاصة من فسر الأغصان بأنها الأغصان المستقيمة الممتدة، وأن الأفنان جمع فن، وهو الغصن يقول: قد اسودتا من الخضراء، يقال للعراق مثلاً: سواد العراق؛ لشدة الخضراء وكثرة النخيل فيه، وهذا شيء مشاهد إذا ذهبت إلى البلاد التي تكثر فيها الخضراء جداً في الطائرة تراها سوداء، إذا كنت على ارتفاع يمكنك من الرؤية تظن أنها حربة سوداء الآن لو ذهبت إلى جزر أندونيسيا مثلاً تراها من أعلى سوداء تظنه حربة سوداء من شدة الخضراء، الحين الذي لا يعرفها يظن أنها بلاد سوداء، حربة سوداء مثل التي حول المدينة، من شدة خضرتها تبدو سوداء.

وقال هناك: **{فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ}**، وقال هاهنا: **{نَضَّاخَتَانِ}**، وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: أي فياضتان، والجري أقوى من النضح.

النضح هو فوران الماء من العين، تتضخم تفور من العين وهو أكثر من النضح، النضح أكثر من النضح، وهناك قال: **{فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ}** عيون سارحة فقد تتضخم العين ولكنها لا تكون بهذه المثابة **{عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ}**.

وقال الضحاك: **{نَضَّاخَتَانِ}** أي ممتلئتان لا تنقطعان.

وقال هناك: **{فِيهِمَا مِنْ كُلٌّ فَاكِهَةٌ زَوْجَانِ}**، وقال هاهنا: **{فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرَمَانٌ}**.

هنا قال: **{فِيهِمَا فَاكِهَةٌ}**، وهناك: **{مِنْ كُلٍّ فَاكِهَةٌ}** [سورة الرحمن: ٥٢] يقصد أنه من كل فاكهة، فيها من كل، كلمة "كل" هي أقوى صيغة من صيغ العموم، بينما هنا **{فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرَمَانٌ}** ما فيها عموم في الثانية،

٥ - رواه الدارمي في سننه، برقم (٢٨٢٢)، وقال حسين سليم أسد: إسناده ضعيف لضعف أبي قدامة الحارث بن عبيدة، وابن أبي شيبة في مصنفه، برقم (٣٤١٠٩).

{فيهما فاكهة} فلا شك أنها فاكهة كثيرة كما جاء وصفها في موضع آخر، **{لَا مَقْطُوعَةٌ وَلَا مَمْتُوعَةٌ ***
وَفُرُشٌ مَّرْفُوعَةٌ [سورة الواقعة: ٣٣-٣٤].

ولاشك أن الأولى أعم وأكثر في الأفراد والتنويع على فاكهة، وهي نكرة في سياق الإثبات لا تعم؛ ولهذا ليس قوله: **{ونَخْلٌ وَرُمَانٌ}** من باب عطف الخاص على العام، كما قرره البخاري وغيره، وإنما أفرد النخل والرمان بالذكر لشرفهما على غيرهما.

يعني وإلا فهم من جمله الفاكهة، هذا هو المعروف عند العرب، والمشهور، والذي قال به عامة أهل العلم من الفقهاء وغيرهم إلا الحنفية كما هو معروف فإنهم لا يعدون هذا من الفاكهة، **{فيهما فاكهة ونخل ورمان}**، والشيء الخاص يعطى على العام أو يذكر بعض أفراد العام، هنا لا يوجد صيغة عموم، لكن المقصود أن الفاكهة تشمل هذا وهذا، العموم أقصد الذي أخذ من المطلق؛ لأن المطلق كما هو معروف فيه شمول، لكن شموله بدلي، وأما العام فإن شموله استغرافي؛ فلذلك تجد أن مباحث المطلق مشابهة تماماً لمباحث العام، وينذرون به مباشرة، ويختصرون الكلام فيه اختصاراً ويطيلون في العام هذا في أصول الفقه، فهنا **{فيهما فاكهة}** فـ "الفاكهه" مطلق، وهذا الإطلاق يشمل النخل والرمان، يعني هذا الرمان يعتبر فاكهة، والنخل يعتبر فاكهة، والعنب يعتبر فاكهة وهكذا، فذكر النخل والرمان مع أنه داخل في جملة الفاكهة؛ لشرفه **{من كان عدواً لله وملائكته ورسليه وجبريل وميكل}** [سورة البقرة: ٩٨]، وهو من جملة الملائكة، مع أن هناك لفظة الملائكة فيها عموم؛ لأنه جمع مضاد إلى معرفة فهذا للعموم، لكن ذكر جبريل، و**{حافظوا على الصلوات}** [سورة البقرة: ٢٣٨]، "ال" هذه للعموم، **{والصلوة الوسطى}** لأهميتها، فيعطى الخاص على العام؛ لمعنى، فهنا من أهل العلم من يقول: ذكر النخل؛ لأنه غذاء، والرمان؛ لأنه دواء، هكذا قال بعضهم، ومعلوم أن الرمان دباغ للمعدة.